

د/سميرة بوجرة

محاضرة رقم 03

أثر العلماء في تطور البلاغة العربية

يعد علم البلاغة أحد أبرز العلوم التي تبوّأت مكانة رفيعة في التراث العربي الإسلامي، إذ ارتبط منذ نشأته بالحاجة إلى فهم النصّ القرآني وتذوّق الشعر العربي، وتجلية أسرار البيان في الخطاب. ومع اتساع حركة التأليف العلمي في القرون الأولى، أسهم العلماء القدامى إسهامًا جوهريًا في بناء هذا العلم وتقعيده، فكان نتاجهم حجر الأساس الذي انطلقت منه الدراسات البلاغية اللاحقة. فقد وضعوا المفاهيم الأولى للمجاز والتشبيه والكناية، ورسّخوا مبادئ البيان والمعاني والبدیع، وابتكروا أدوات للتحليل النصي مكّنت الدارسين من إدراك وجوه الجمال والتأثير في الكلام. ولم تقف جهودهم عند حدود الوصف، بل تجاوزتها إلى النقد والكشف عن العلاقات الدقيقة بين اللفظ والمعنى، وبين الأسلوب والمقصد، مما جعل البلاغة علمًا حيًا متجددًا قادرًا على تفسير طبيعة التعبير الإنساني. وهكذا غدت إنجازاتهم منارة تهدي الدارسين عبر العصور، وأساسًا لا يمكن تجاوزه في أي محاولة لفهم تطوّر البلاغة العربية ومسارها الحضاري. وفيما يلي عرض لجملة من هذه الجهود مصنفة حسب التخصص العلمي.

1. أثر النحاة:

لقد أسهم اللغويون والنحويون في بلورة مفاهيم البلاغة العربية في خضم التقعيد للغة العربية، وكانت المنابت الأولى للبلاغة العربية منابت لغوية، ولعل العودة إلى متون هؤلاء خير دليل على إسهاماتهم الجليلة في بناء صرح هذا العلم، وهذه نماذج عن جهود هؤلاء.

1.1. سبويه (ت 107 هـ): تحدث سبويه عن بعض خصائص التراكيب وأوجه الدقة في استعمال الألفاظ مثل: التقديم والتأخير والتعريف والتتكير والحذف، وعن معاني بعض الأدوات مثل أدوات الاستفهام وغيرها مما تناوله البلاغيون فيما بعد.

ويشير إلى المجاز العقلي عند حديثه عن بيت الخنساء:

تَرْتَعُ مَا غَفَلْتُ حَتَّى إِذَا ادَّكَّرْتُ ... فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ

فيقول: "جعلتها الإقبال والإدبار مجازا على سعة الكلام". كما يتحدث عن التشبيه ويورد أمثلة له، نحو قوله: "مررت برجل مثل الأسد، إذا كنت تشبهه"، إلى غير ذلك من الإشارات البلاغية التي نجدها متناثرة هنا وهناك في الكتاب.

2.1. أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 208 هـ): ألف أبو عبيدة في كتابه (مجاز القرآن) بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه إذ سأل سائل في مجلس الفضل بن الربيع عن التشبيه في قوله تعالى: (طَلْعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) الصافات (65)، فقال: "إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف، فأجاب أبو عبيدة إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أَيْتَقُنُّنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالِ

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أو عدوا به".

والمجاز عند أبي عبيدة لا يراد به المجاز الاصطلاحي المقابل للحقيقة، وإنما يراد به المعنى اللغوي لكلمة "مجاز" فهي مصدر ميمي أو اسم مكان من جاز الطريق إذا عبر، فالمراد بمجاز القرآن التفسير وبيان الطرق التي يسلكها القرآن في التعبير عن المعاني. وفي معرض تفسيره للآيات تحدث عن التشبيه والاستعارة والتقديم والتأخير وحذف وتكرار وغيرها.

3.1. الفراء (ت 207 هـ):

يتحدث الفراء في كتابه "معاني القرآن" عن مسائل بلاغية مختلفة كالتقديم والتأخير والإيجاز والإطناب والمعاني التي تفيدها بعض الأدوات كأدوات الاستفهام والتشبيه والاستعارة والكناية في الآية الكريمة عن الاستعارة في قوله تعالى: (وَإِنَّهُمْ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ) الحجر (79) فيقول: "بطريق لهم يمرون عليها في أسفارهم فجعل الطريق إماما لأنه يؤم ويتبع".

4.1. ابن جني: تحدث ابن جني في كتابه "الخصائص" على طبيعة اللغة ووظيفتها، وناقش قضايا تتصل بالإبداع اللغوي، مثل الاشتقاق الأكبر، والعدول عن القياس، والتوسع الدلالي.

هذه القضايا أسهمت لاحقاً في بناء مفاهيم بلاغية تتعلق بالمجاز والانزياح والتصرف في الكلام لأغراض بيانية.

2. أثر المتكلمون: والمتكلمون هم أصحاب الصناعة الكلامية في بحثهم للقرآن الكريم وتدليلهم على إعجازه واستنباط العقائد منه والدفاع عنه. وقد أخذوا ينقسمون إلى فرق في نهاية القرن الأول الهجري من جبر وإرجاء واختيار، ويتجادلون في مسائل العقيدة.

وتعد فرقة المعتزلة أبرز الفرق الكلامية التي أسهمت في نشأة البلاغة العربية، أولت فرقة المعتزلة عناية فائقة بمسائل البلاغة، لاسيما المجاز حيث راح علماءها يرصدون ألوان المجاز المختلفة في الآيات القرآنية، ويبحثون دلالاته المتنوعة وبذلك تمت على أيديهم دراسة المجاز دراسة علمية انتهت إلى وضع حدوده وقواعده وبيان أساليبه وخواصه، والتميز بينه وبين الحقيقة. لاشك أن محاولة تتبع جهود المعتزلة في رسم معالم المجاز البلاغية موضوع واسع ومتشعب لذلك سنعمد إلى عرض أعمال أبرز علمائها، وذلك على النحو الآتي ذكره

1.2. البقلاني وكتابه إعجاز القرآن (ت 403هـ): من أعلام الأشاعرة له كتب كثيرة أهمها كتاب "إعجاز القرآن" يرد فيه على الملحدين والمشككين ويرفض بالقول بالصرفة، ويرى أن إعجاز القرآن الكريم راجع إلى ثلاثة أوجه: تضمنه الإخبار عن الغيب، القصص الديني وسير الأنبياء، بلاغته، والناظر في هذا الكتاب يجده يفتقد إلى التنظيم المنهجي، فهو ينتقل من موضوع إلى آخر، ثم يعود إلى الموضوع الأول، وقد عقد فصولاً لبيان أن القرآن الكريم معجز، وإيضاح أوجه إعجازه، نفي الشعر والسجع عنه، وساق طائفة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ليلمس القارئ الفرق بينها وبين القرآن، ويدرس معلقة امرئ القيس ولامية البختری ليبين الفرق بينها وبين النظم القرآني وأنه وحده لا تفاوت فيه، فالقرآن بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز جميع الخلق عنه.

ونجده يتحدث في فصل آخر عن وجوه البديع وهل يمكن تعليل الإعجاز القرآني بها أو لا يمكن، فيتحدث عن الاستعارة والارداق والمماثلة والمطابقة والجناس والمبالغة والتعريض والترصيع والطباق وغيرها من الفنون.

2.2. جهود الرماني: استطاع أن يبلور كثيرا من جوانب التأثير النفسي الذي تُحدثه العبارة المجازية، تلك الآثار التي تعجز العبارة الحقيقية عن التعبير عنها .

3.2. جهود القاضي عبد الجبار: لم ينفصل البحث في المجاز عن تصوّره لطبيعة اللغة وشروط دلالتها، ولقد انتهى إلى جواز وقوع المجاز في الاسم المفرد وفي التركيب معا .

4.2. جهود الزمخشري: استمرت جهود المعتزلة تنمو وتزدهر لتبلغ أوج نضجها في القرن السادس الهجري على يد " الزمخشري "؛ حيث إنه غني في تفسيره " الكشاف " ببحث أساليب المجاز عناية بالغة، وبإظهار دقائق دلالاتها وما فيها من لطائف، بهذا فقد استطاع أن يرسم أبعادا متكاملة للمجاز القرآني، فكان بحق رائدا من رواد مرحلة التأصيل لهذا المعلم البلاغي.

3. أثر النقاد: البلاغة العربية ثمرة من ثمار الجهود النقدية المبكرة، إذ نشأت في أحضان النقد الأدبي الذي مارسه العلماء القدامى وهم يتتبعون جماليات التعبير في الشعر، ويكشفون أسرار الأسلوب العربي في دقته وإحكامه. فقد كان النقاد الأوائل يقفون على النصوص الشعرية خاصة، ليهتموا باللفظ والمعنى والتصوير، ويحكمون على جودة اللفظ وملاءمته للمقام، ويقاربون بين الأساليب تمييزاً للفصيح من الرديء. ومن خلال هذه الممارسات النقدية وُضعت اللبّات الأولى للمفاهيم التي ستتحول لاحقاً إلى مباحث البلاغة الكبرى: البيان، والمعاني، والبدیع. وهكذا أسهم النقاد القدامى، مثل الجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن طباطبا وغيرهم كثيرون، في رسم الحدود الأولى للدرس البلاغي وتأصيل مصادره، وقد تداخلت علوم النقد والبلاغة في التراث العربي، وخير مثال على ذلك تلك المصنفات التي جمعت بين النقد والبلاغة ن مثل الموازنة بين أبي تمام والبحتري، وكتاب الوساطة الخصومة بين المتنبي وكتاب المثل السائر، وكتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء وغيرها من المصنفات.

1.3. قدامة بن جعفر (ت 337 هـ): يعد قدامة من أغزر أهل عصره علما وأوسعهم ثقافة، برز في اللغة والأدب والفقه والكلام والفلسفة، فقد درس الفلسفة والمنطق وتأثر بهما في مؤلفاته تفكيراً منهجاً. ويعد كتاب "نقد الشعر" أهم مؤلف نقدي له من بين كتبه الكثيرة، أسهم به بنصيب كبير في نمو البلاغة وتطور مسائلها، وتحدث عن الغاية من تأليف كتابه وهو النظر في مسائل

الشعر وتميز جيد الشعر من رديئه. وفي أثناء حديثه عن نعوت الجودة لعناصر الشع مفردة أو مركبة يعرض لكثير من الفنون البديعية، أهمها:

التشبيه: وجعله غرضا من أغراض الشعر، ويسوق أمثلة عن التشبيهات الجيدة الحسنة، ثم فصل في صنوف التشبيهات، وأشار إلى أن للشاعر أن يتصرف في تشبيهاته وأن يجدد في صورته بالخروج على المألوف عند الشعراء في تشبيهاتهم.

الترصيع: وجعله من نعوت جودة الوزن، وعرفه بأن يتوخى في البيت تقطيع أجزائه إلى فقرات مسجوعة أو شبيهة بالمسجوعة. كما في قول الشاعر:

سودٌ ذوائبها بيضٌ ترائبها ... محضٌ ضرائبها صيغت من الكرم

وتحدث عن أنواع بلاغية كثيرة لا يتسع المقام لذكرها كلها منها: صحة التقسيم، والمقابلات، المبالغة، التكافؤ (الطباق)، الالتفات، المساواة، الازداف (الكناية)، المطابق (الجناس).....

2.3. ابن طباطبا العلوي عيار الشعر (ت 322هـ): كتاب ألفه ابن طباطبا في صناعة الشعر ومعرفة الميزان الذي تقاس به بلاغته وقد تأثر كثيرا بالجاحظ وابن قتيبة، فهو يتحدث عن الملائمة بين الألفاظ والمعاني وبين الكلام وأحوال المستمعين. ومن أهم المباحث البلاغية التي تناولها مبحث التشبيه، وفصل القول فيه، خاصة التشبيهات الحسية، وتحدث عن جيدها ورديئها، كما تحدث عن طريقة العرب في التشبيه، وتطرق إلى التشبيه التمثيلي في قول امرئ القيس:

كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

كم تحدث ابن طباطبا عن فنون بديعية كثيرة أشار إليها السابقون، منه: رد الأعجاز عن الصدور، التعريض أو الكناية، السرقات الشعرية، براعة الاستهلال وحسن التخلص وغيرها.

3.3. الأمدى والموزانة بين أبي تمام والبحري (ت 371هـ): يتناول الكتاب المقارنة بين شعر الشاعرين أبي تمام والبحري، وهذه الموازنة جعلته يتحدث عن قضايا نقدية وبلاغية مهمة، منها السرقات الشعرية، الاستعارة التي اشترط فيها القرب والوضوح على طريقة عمود الشعر، والتشبيه، الذي احتفى به الأمدى كثيرا، خاصة التشبيهات التي كانت على طريقة

الشعراء الأوائل، والفنون البديعية مثل الجناس والطباق والتعقيد اللفظي وحسن الابتداء وغيرها.

4.3. أبو الهلال العسكري وكتاب الصناعتين (ت 395هـ): يريد بالصناعتين الكتابة والشعر، وفي مقدمة الكتاب ينوه بالبلاغة وضرورة معرفتها والإلمام بمسائلها، ذاكرا أهميتها بين العلوم الأخرى، فهي ضرورية لفهم إعجاز القرآن الكريم، وللتميز بين جيد الكلام ورديئه، وتبيان ما يجب استعماله من أساليب اللغة الرفيعة وألفاظها الجيدة. ويتطرق إلى الغاية من تأليف كتابه، وأن كتابه ليس على طريقة المتكلمين، إنما على طريقة الكتاب والشعراء، منهم ابن المعتز الذي يكثر الشواهد من القرآن والشعر.

عقد الباب الأول للإبانة عن موضوع البلاغة، وفيه تحدث عن الأصل اللغوي للبلاغة، معرفة الكلام وتمييز جيده من رديئه، وأبواب أخرى تناول فيها: حسن السبك وجودة الرصف، الإيجاز والإطناب والمساواة، السرقات الشعرية، التشبيه وفصل فيه، السجع، باب في شرح البديع، وغيرها. وقد تأثر العسكري في تناوله لهذه الأبواب بمن سبقه من العلماء كالجاحظ وقدامة بن جعفر وابن المقفع والأمدي وغيرهم.

وفي الباب التاسع الذي ذكر فيه فنون البديع، نجدها خمسة وثلاثون، فقد زاد فيها ستة فنون على ما ذكره العلماء قبله وقام بشرحها والاستشهاد لها. والكتاب كنا ذكر في مقدمته يجمع طريقة الكتاب وصناع الشعر، أي بين البلاغة والنقد.

